كبرى اليقينيات الكونية

وجود الخالق ووظيفة المخلوق

مع تمهيد بالغ الأهمية في منهج البحث العلمي
عن الحقيقة عند علماء المسلمين وغيرهم

تأليف

الدكتور محمد سعيد رمضان البوطي

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

ثالثاً

يوم القيامة وأحداثه

تمهيد

إذا تكاملت أشرط الساعة التي تحدثنا عنها ، وجاء ميقات اللحظة المحددة المعلومة عند رب العالمين ، والخفيَّة عن عباده أجمعين ، ذلك الميقات الذي ينتهي عنده أجل الدنيا بما فيها ـ حينئذ تنتهي الحياة من على هذه الأرض وسائر بقاع الكون الأخرى ، وينتثر هذا النظام الكوني بأجمعه .. بعد أن ظل دهراً مديداً سائراً في خدمة مولاه ، ملتزماً ما وضعه فيه من منهج لا ينحرف عنه . إنَّ خدمته الرتيبة هذه تنتهي في تلك اللحظة التي لا يعلم ميقاتها إلا الله عز وجل ، ليبدأ من ورائها طور جديد من الخلق والتكوين والتنظيم .

فهذه النهاية التي تنعدم عندها الحياة من الكون وينهار عندها نظامه وتتبدل معالمه وتنتثر أجزاؤه ، هو بدء ما يسميه القرآن ، بالساعة وبيوم القيامة . ثم تمتد هذه البداية إلى حشر الأجساد وإعادة أرواحها إليها ، ثم إلى ما يتبع ذلك من طول حساب وميزان واجتياز صراط ، إلى أن يستقر أصحاب الجنة في جنان خلدهم ويستقر أصحاب العذاب في سعيرهم .

كيف تقوم الساعة وتنعدم الحياة :

حسبك لمعرفة ما يجب أن تعلمه من ذلك ، أن تقرأ قوله تعالى : ﴿ ونُفِخَ في الصُّورِ فصَعِقَ مَن في السَّمواتِ وَمَن في الأرضِ إلاّ مَن شاءَ اللهُ ، ثم نُفِخ فيه أُخرى فإذا هُم قِيامٌ يَنظُرونَ ﴾ [الزمر : ٦٨] وأن تقرأ قوله تعالى : ﴿ ما يَنظُرونَ إلاَّ صَيحَةً واحِدَةً تَأخُذُهُمْ وَهُم يَخصِّمونَ ، فَلا يَستَطيعونَ تَوصِيَةً

وَلا إلى أَهْلِهِمْ يَرجِعونَ ﴾ [يس : ٤٩ ـ ٥٠] ثم أن تـؤمن بـالأمر كما أخبر الله عـز وجل .

فهنالك صُور (والصور هو البوق) وهنـالـك نفخ يكون في الصور ، تصعق لـه الأرواح ، إلا من شـاء الله أن لا يُصعَق بـذلـك . ويحتمل أن يكـون المراد بهم أرواح الأنبيـاء والشهـداء كما يحتمل أن يكونوا بعض الملائكـة كإسرافيـل وميكائيـل وجبريل وملك الموت ، وقد وردت أحاديث وأخبـار بـذلـك ، والله أعلم بمراده . وأين هذا الصور وكيف شكله وهيئته وما الذي يحدثه النفخ فيـه حتى يترك هـذا الأثر الغريب ؟ علم ذلك كله عند الله عز وجل ، ولو كشف لنا عن حقيقـة شيء من ذلك لعلمنا ، ولكن لا مجال للعقل أن يستيقن أي شيء عنه ، إذ قد طوى الله علم ذلك عن عباده .

والمهم أن تعلم أن لا مـدخـل لتهـارج النـاس وحروب الأمم مع بعضهـا ، وما يعقب ذلك من استعمال أسلحة فتاكة مدمرة ـ لا مـدخل لشيء من ذلـك في إقـامـة السـاعـة وإنهـاء الحيـاة كما أخبر الله . ولعـل بعض من يحبـون أن يستبقـوا الأشيـاء في الحـديث عنهـا حسب تخيلاتهم ، يطيب لهم أن يتخـذوا من الأسلحـة الذرية الحديثة تفسيراً لكيفية قيام الساعـة ، ويظنون أن فيما يقـدمون عليـه من هذا التفسير ، تسهيلاً للإيمان بيوم القيامـة على الشـاكّين والملحـدين . ولكن هـذا خـوض في مجْهلَـةٍ لا ينبغي الخـوض فيهـا بحـال ، واجتهـاد في أمر لا مجـال فيـه لـلاجتهـاد والنظر ، عـدا أنـه يخـالف نصـوص القرآن ، على مـا قـد رأيت ، كل المخالفة . ويغيب عن هؤلاء الذين يتجرؤون على هذا الخوض بطيب نيـة وحسن طوية ، أن نفخ الصور الذي أخبر الله عنه ، تصعق له الأرواح كلهـا بـا في ذلـك أرواح الأحياء والأموات وأرواح الناس والملائكـة والجـان . وأين هـذا مـا تفعلـه القنابل الذرية والهيدروجينية بالغة من الخطورة والفتك مهما بلغت ؟ وأي أثر أو سلطان لها على الملائكة وأرواح الموتى ؟

الأدلة على قيام الساعة :

اعلم يا أخي المسلم أن قيام الساعة أخطر الأخبار الغيبية التي أخبر عنها الخالق جل جلاله ، على الإطلاق .

هو أخطرها وأعظمها ، من حيث شدة الغرابة والبعد عن مألوف الإنسان وتصوراته ، ومن حيث ما ينتظر الإنسان إذ ذاك من العذاب المذهل الذي لا يكاد يتصوره الخيال ، أو النعيم الخالد الذي ينطوي على ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

وهو أخطرها وأعظمها ، من حيث إنه اليوم الذي يقف فيه هذا الإنسان ذليلاً مهيناً ضعيفاً بين يدي خالقه يكلمه ويحاسبه ويسأله عن النقير والقطمير وعن كل صغير وكبير ، بعد أن مرَّ في مفازة هذه الدنيا يسمع عنه ولا يراه ولعله أيضاً لا يؤمن به .

وهو أخطرها وأعظمها ، لأن عليه مدار وجود هذا الإنسان كله . فحياته اليوم مع ما فيها من كدح ورزق وسعي وعقل وشهوات وأهواء كل ذلك تمهيد وتهيىء لملاقاة خالقه في هذا اليوم .

فمن أجل خطورة هذا الحدث العظيم من هذه النواحي كلها ، يظل القرآن يخبر الإنسان عنه وينذره إياه في تأكيد متوالٍ لا ينقطع ، ولا تكاد تمر على صحيفة في هذا الكتاب العظيم إلا وتجد فيها حديثاً عن يوم القيامة وتنبيهاً للإنسان إليه .

ولن تجد خبراً حفل به كتاب الله تعالى في تأكيد شديد له بشتى الأساليب العربية المختلفة ، كخبر يوم القيامة ، ولن تجد فيه تنبيهاً إلى عظيم وتحذيراً من خطير ، وبتفنن عجيب في النظم والأسلوب ، كتنبيهه الناس إلى يوم القيامة وتحذيرهم مما سيلاقونه فيه .

كل ذلك من أجل أنه شيء بعيد كل البعد ومختلف كل الاختلاف عن واقع ما هم فيه وما يرونه ويحسّونه به . فهو من أعظم الغيوب المحجوبة عن الإنسان في حياته هذه ؛ بل هو الغيب نفسه ، إنه الغيب الذي إذا انجاب وانكشف ، ظهر لعين الإنسان كل ما قد كاد يجحده ويكفر به ، وأصبح نظره إليه حديداً يوقن به ولا ينكر منه شيئاً ، وإنه للغطاءُ الذي قال عنه القرآن : ﴿ لَقَدْ كُنتَ في غَفلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ اليَومَ حَديدٌ ﴾ [ق : ٢٢] .

فلا جرم أن هذه الإخبارات المنذرة والمنبهة والمحذرة في كتاب الله تعالى ، هو أعظم دليل وبرهان ، على قيام الساعة ويوم القيامة وكل ما يتبع ذلك من أحداث .

ولنتأمل طائفة من هذه الآيات بقلب متيقظ وعقل متدبر ، ولنتنبه إلى ما فيها من فنون التأكيد المختلفة بشتى الوجوه والأساليب التي تخاطب في الإنسان وجدانه وعقله ومشاعره ، حتى يتغلب بذلك على الواقع الذي حصر كل خياله فيه وحتى يتحرر من سجن دنياه التي يعيش فيها ويستيقظ من الأحلام التي يتقلب فيها ، عسى أن يحسب لهذا الذي سيفجؤه عما قليل حسابه ويُعِدَّ له عدته .

انظر إلى هذه الآية وتأمل في المؤكدات الشديدة التي كأنما غُمِسَت الآية فيها غمساً :

﴿ اللهُ لا إلهَ إلاَّ هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُم إلى يَومِ القِيامةِ لا رَيْبَ فيهِ وَمَنْ أصْدَقُ مِنَ اللهِ حَديثاً ﴾ [النساء : ٨٧] .

وانظر إلى هذه الآيات الأخرى التي سيقت مساق الحجاج والنقاش ، لتبديد ما يطوف بذهن الإنسان من عوامل الريب والشكوك حول إمكان وقوع هذا الأمر العظيم ، بأسلوب معجز يتجلى فيه سلطان الربوبية ، وبنفس التأكيد الذي رأيته في الآية السابقة :

﴿ ويقولُ الإنْسانُ أإذا ما مِتُّ لَسَوفَ أُخرَجُ حَيّاً . أوَلا يَذكُرُ الإنسانُ أنَّا خَلَقناهُ مِنْ قَبلُ وَلَم يَكُ شَيئاً فَوَرَبِّكَ لَنَحشُرَنَّهُم والشَّياطينَ ثُمَّ لَنُحضِرَنَّهُم حَولَ جَهَنَّمَ جِثِيّاً ﴾ [مريم : ٦٦ ـ ٦٨] .

وتأمل في هذه الآيات الأخرى التي صاغها الخالق بأسلوب تتجلى فيه الحسرة والأسى على الناس الذين أسكرهم واقع ما هم فيه عن حقيقة ما سيرونه عما قليل ، فما تنفعهم عظة ولا تؤثر فيهم ذكرى :

﴿ اقتَرَبَ للنَّاسِ حِسابُهُم وَهُم في غَفلَةٍ مُعرِضونَ ، ما يأتيهِمْ مِن ذِكرٍ مِن رَبِّهِمْ مُحدَثٍ إلاَّ استَمَعوهُ وَهُم يَلعَبونَ . لاهِيَةً قُلوبُهُم .. ﴾ [الأنبياء : ١ ـ ٣] .

وانظر إلى هذه الآية الأخرى كيف ينبه الخالق جل جلاله فيها العقل إلى أن ما يراه من عظمة هذا الكون بكل ما فيه ، إنما هو بالنسبة لقدرة الإنسان فقط ، فما ينبغي له أن يتخذ من العظمة التي ليست عظمةً في الواقع إلا بالنسبة لضعف الإنسان ، دليلاً على إنكاره ليوم القيامة :

﴿ يَومَ نَطْوي السَّماءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلكُتُب ، كَما بَدَأنا أوَّلَ خَلقٍ نُعيدُهُ ، وَعداً عَلَينا إنَّا كُنَّا فاعلين ﴾ [الأنبياء : ١٠٤] .

وأحياناً أخرى ، يظهر في مكان هذه الأساليب كلها أسلوب آخر هادئ . إنه أسلوب النظر العلمي ولفت العقل إلى ما ينبغي أن يتنبه إليه من مذاهب التأمل والفكر ، في قالب تعليمي كأنه درس من أستاذ لتلاميذه وليس إخباراً من إله عظيم لعباده :

﴿ يا أيُّها النَّاسُ إن كُنتُم في رَيبٍ مِنَ البَعثِ فإنَّا خَلَقناكُم مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِن نُطْفَةٍ ثُمَّ مِن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وغيرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبيِّنَ لَكُم ، وَنُقِرُّ في الأرحامِ ما نَشاءُ إلى أجَلٍ مُسَمّىً ثم نُخْرِجُكُم طِفلاً ثُمَّ لِتَبلُغوا أشُدَّكُم وَمِنكُم مَن يُتَوفَّى ومِنكُم مَن يُرَدُّ إلى أرذَلِ العُمُرِ لكي لا يَعلَمَ مِن بَعدِ عِلمٍ شَيئاً . وَتَرى الأرضَ

هامِدَةً فإذا أنزَلْنا عَلَيها الماءَ اهتزَّتْ وَرَبَتْ وأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوجٍ بَهيجٍ ، ذلكَ بأنَّ اللهَ هوَ الحَقُّ وأَنَّهُ يُحيي المَوتى وأَنَّه على كُلِّ شيءٍ قديرٌ وأَنَّ السَّاعَةَ آتيَةٌ لا رَيبَ فيها وأنَّ اللهَ يَبعَثُ مَن في القُبورِ ﴾ [الحج : ٤ ـ ٧] .

أما في حالات كثيرة أخرى ، فإن الحديث عن يوم القيامة وأحداثه يأتي بأسلوب تصويري من شأنه أن يبدد ما بينه وبين الناس من حجب الغيب ومسافات الزمن ، وينقلهم إلى جو هذه الأحداث حتى لكأنهم يشاهدونها بأعينهم ، وقد خلَّفوا أيامهم التي عاشوها في الدنيا من ورائهم وأخذ الندم يفري قلوب الجاحدين والمنكرين دون أي جدوى :

﴿ وَلا تَحسَبَنَّ اللهَ غافِلاً عَمَّا يَعمَلُ الظَّالِمونَ إنَّما يُؤَخِّرُهُم لِيَومٍ تَشخَصُ فيهِ الأَبصارُ مُهطِعينَ مُقنِعي رؤوسِهِم لا يَرتَدُّ إليهم طَرْفُهُم وأفئِدَتُهُم هَواءٌ ، وأَنذِرِ النَّاسَ يَومَ يَأتيهِمُ العَذابُ فَيقولُ الَّذين ظَلَموا ربَّنا أَخِّرنا إلى أجَلٍ قَريبٍ نُجِبْ دَعوَتَكَ ونَتَّبِعِ الرُّسُلَ ، أَوَ لَم تَكونوا أقسَمْتُم مِن قَبلُ ما لَكُم مِن زَوالٍ .. ﴾ [إبراهيم : ٤٢ ـ ٤٤] .

﴿ وَنُفِخَ في الصُّورِ فإذا هُم مِنَ الأَجْداثِ إلى رَبِّهِم يَنسِلونَ ، قالوا يا وَيلَنا مَن بَعَثَنا مِن مَرقَدِنا ؟.. هذا مَا وَعَدَ الرَّحمنُ وَصَدَقَ المُرسَلونَ ، إن كانَتْ إلاَّ صَيْحَةً واحِدَةً فإذا هُم جَميعٌ لَدينا مُحضَرونَ ﴾ [يس : ٥١ ـ ٥٣] .

وربما عاد النظم القرآني ، بعد كل هذه الأساليب المختلفة في التأكيد والبيان والتصوير ، يلمس هذا الأمر على عجل لمسة المنذر الذي لم يعد يبالي أأيقن الجاحدون أم بعدُ ، فقد جاءهم النذير واتضح المبهم وإن في ذلك لبلاغاً ، انظر بعين قلبك إلى قوله :

﴿ لِكُلِّ نَبَأٍ مُستَقَرٌّ ، وَسَوفَ تَعْلَمونَ ﴾ [الأنعام : ٦٧] .

﴿ يَسأَلونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرساها ، فيمَ أنتَ مِنْ ذِكْراها . إلى رَبِّكَ

مُنْتَهاها . إنَّما أَنتَ مُنـذِرُ مَن يَخشـاهـا . كَأَنَّهُم يَومَ يَرَونَهـا لَمْ يَلبَثوا إلاَّ عَشِيَّـةً أو ضُحاها ﴾ [النازعات : ٤٢ ـ ٤٦] .

وإنَّ استقصاء الآيات التي تلح على الإنسان أن يتنبـه بكل جوارحـه وعقلـه ووجدانه لخطر هذا اليوم المقبل عليه وأن يعدَّ لذلـك عـدتـه ـ نقول إن استقصـاء ذلـك أمر يطول . فمـا عليـك إلا أن تُقبل على كتـاب الله جل جـلالـه وتتـأمـل ما يفيض به من حديث الساعة وشؤونهـا والأسـاليب المعجزة المختلفـة في تـأكيـد أمرها وتحذير الإنسان من أن يخدعه أي خادع عنها .

فهذا دليل ما بعده دليل على قيام الناس بعد موتهم لرب العالمين .

ويتبع هذا الدليل مـا كنـا قـد أوضحنـاه من قبل ، وهو أن ممـا لا يتصوره العقل أن تكون قصة الإنسان تبـدأ من غلاف الولادة وتنتهي بغلاف الموت إلا إذا تصورنا أن الذي خلقه ، وأطلق يده في الحياة إنما فعل ذلك عبثاً . وقد علمت أن العبث من أجلى صور المحالات بالنسبة لذات الله جل جلاله .

إن قصـة الإنسـان في حيـاتـه هــذه ليست إلا مقــدمــات مبتـورة تتطلب نتائجها ، كالفصل الصغير من الرواية المتكاملة . فالذي عاش حياتـه كلهـا فـاجراً طاغياً يفسد في الأرض ولا يخلف عليها إلا آثار ظلمـه وطغيـانـه ، والـذي عـاش مستضعفاً مهيض الجناح تقبل عليه الرزايا من كل جـانب ويتلقى لطمات النـاس وظلمهم من كل صوب ، والذي عاش مبتلى مصاباً في جسمـه طوال حيـاتـه ورأى النـاس كيف ينعمون دون أن يـذوق شيئـاً من نعيمهم . كل هؤلاء إنمـا عـاشوا مع جزء يسير من قصـة وجـودهم في الكـون ثم أسـدل عليهم ستـار المـوت فـاصـلاً بين جزئي القصة ، لا منهياً لها ومتمماً لأحداثها .

أجل ، إن من سبق أن أراد لعقله أن لا يؤمن بوجود الخالق جل جلالـه فهو أحرى أن لا يؤمن بالجزء الثاني من قصة الإنسـان . وليس كثيراً عليـه أن يتصور

العبث في قصة هذا الإنسان على ظهر هذه الأرض بعد أن تصور العبث في وجود الكون كله .

وقد علمت أننا إنما نخاطب من سبق أن كان معنا عند الحديث عن وجود الله وأدلة ذلك وعن بعثة الأنبياء وأدلة ذلك . وليس يغني القارئ شيئاً أن يتسمع إلى شيء مما نقول هنا ، وقد فاته الكثير ، مما قد ذكرناه في أصل هذا البحث .

كيفية حشر الأجساد وعودة أرواحها إليها :

لا يستطيع العلم أن يصف كيفية حشر الأجساد أو أن يحللها ويعللها بالطريقة العلمية التي يمارسها الإنسان في هذه الحياة ، وذلك لما كنا قد ذكرناه من أن شأن العلم محصور في أنه يبدأ البحث بموضوعات توجد في التجربة الخارجية البعيدة عن وحي العقل أو التفكير المحض ، ثم تفرض نفسها عليه طبق ما دلت عليه المشاهدة والتجربة ، وعلى العقل بعد ذلك أن يفسرها ويحللها فقط .

والمعاد الجسمي لم يتحقق بعد ، ومعنى ذلك أنه لم يوجد بعدُ الموضوع الذي يستطيع العلم أن ينظر ويبحث فيه . فمن العبث إذاً أن تسائل المجهر عن تحليل مالم يوضع تحته بعد من صنوف المركبات .

كل مانملكه من نظر وبحث في هذا الموضوع ، هو أن نبدأ فنتساءل :

هل المعاد يكون بعد انعدام الأجساد من الوجود أصلاً ، أم بعد تفتت أجزائها وأجزاء أجزائها في طوايا الأرض أو بطون الحيتان أو أعماق البحار ؟

لم يرد بهذا أي خبر قطعي عن الله جل جلاله ، فليس علينا أن نجزم إذاً بأن عدماً مطلقاً سيعتري الأشياء كلها قبل يوم القيامة ، أو أن نجزم بعكس ذلك . ولكن الذي يجب الجزم به هو أن كل شيء ماعدا ذاته سبحانه وتعالى قابل في حقيقته للهلاك والعدم ، إذ إن الوجود وارد عليه من الخارج وليس نابعاً من حقيقته وجوهره ، سواء اعتراه بعد ذلك العدم فعلاً أو اعتراه التمزق والشتات والفساد .

ولكن جمهور العلماء رجحوا القول الثاني وهو شتات الأجزاء وتفرقها . إذ هو ظاهر قوله تعالى : ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ ﴾ [القصص : ٨٨] وقوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْها فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الجَلالِ والإكْرامِ ﴾ [الرحمن : ٢٦ ـ ٢٧] وقوله تعالى : ﴿ قَدْ عَلِمْنا ماتَنقُصُ الأرضُ مِنهُم وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ ﴾ [ق : ٤] .

فهلاك الشيء يطلق على فساده وخروجه عن أن يبقى منتفعاً به كما كان ، تقول هلك فلان ، أي مات ، وهلكت الدار إذا تقوضت ولم تعد صالحة للسكنى فيها ، ولا يشترط لإطلاق الهلاك الانعدام الكلي . والفناء كذلك ، تقول فنِيَ الثوب والعظم إذا أصبح كل منها أنكاثاً وأجزاء متفرقة لا يستفاد منها لشيء ، ومما يؤكد أن المقصود بالفناء هو هذا الذي نقول ، بل خصوص الموت فقط ، قوله تعالى : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْها فَانٍ ﴾ ، أي كل من على الأرض فان ، فحكم بالفناء على الأحياء التي تكون على وجه الأرض واستثنى ذاته جل جلاله فتبين أن الفناء المعني إنما هو الموت ، أما الأرض ذاتها وماهو في حكمها فهي فانية بهذا المعنى من قبل[1] .

أما دلالة الآية الثانية ، فهي من حيث إنها رد على الذين استعظموا الحشر بعد الموت بقولهم : أإذا متنا وكنا تراباً ؟.. ذلك رجع بعيد ، إذ أجاب على إنكارهم واستعظامهم ذلك ، ببيان أن الله عز وجل يعلم مصير جسومهم التي ذابت في طوايا الأرض أو غيرها ، وعنده سجل يحوي عدد ذرات هذه الجسوم التي تفرقت في هذه الأمكنة ، ويضبط كل ذرة لصاحبها . فما العجب من تجميعها مرة أخرى كما تجمع برادة حديد امتزجت بين حفنة من التراب بواسطة قطعة من المغناطيس الجاذب ؟!

---

(١) استعمال من التي هي للعاقل ليس تخصيصاً للفناء به ، وإنما هو من أجل أن المنتفع بالتخويف من ذلك إنما هو العاقل فقط فخصه تعالى بالذكر .

فالآية دالة على أن الحشر يكون عن طريق تجميع الذرات من التفرق والشتات لا عن طريق إيجادها من العدم المطلق ، ويدل على هذا المعنى أيضاً قوله جل جلاله : ﴿ أَيَحْسَبُ الإنسانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ، بَلَى ، قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنانَهُ ﴾ [القيامة : ٣ ـ ٤] .

وبهذا تعلم أن الذي يعود من الإنسان إلى التجمع والحياة إنما هو عين أجزائه التي عاش بها في الدنيا ، والمقصود بعين أجزائه ، عين أجزائه الأصلية التي بها استقبل الحياة ، أما مازيد عليها بعد ذلك فلا يشترط أن يعاد بذاته ، وقد أطال في بحث ذلك علماء العقيدة والكلام[1] ، وعلم ذلك في الحقيقة عند الله عز وجل ، ولا سبيل لنا ، كما قلت لك ، إلى تحليل أو بيان شيء من الغيوب التي لم يكشف عنها الخالق جل جلاله سجاف غيبه بعدُ .

☆ ☆ ☆

الحساب

وهو إطْلاع الله عباده قبل انصرافهم من المحشر على كل ماقد جنوه في حياتهم الدنيا من تصرفات فعلية وقولية واعتقادية خيراً كانت أو شراً ، وذلك بالشكل أو الواسطة التي لايعلمها أحد غيره .

والحكمة من هذا الحساب أن يظهر الله فضائل المتقين ومناقبهم ، وفضائح العصاة ومثالبهم ، وذلك على رؤوس الأشهاد وسائر أهل العَرَصات .

وهو مما أنذر الله به عباده في الدنيا ، فلا بد أن يتحقق في الآخرة .

---

(١) انظر ما كتبه في ذلك صاحب المواقف : ٢ / ٤٤٢ وسعد الدين التفتنازاني على العقائد النسفية : ٤٠٠ .

وقد دلَّ الخبر الإلهي أن هذا الحساب هو أهم وأعظم ما يراه الإنسان من أحداث يوم القيامة ، حتى إنه سبحانه وتعالى أطلق على يوم القيامة اسم : يوم الحساب ، فقال في محكم كتابه :

﴿ هذا ماتوعَدُونَ لِيَومِ الحِسابِ ﴾ [ص : ٥٣] .

﴿ إنَّ الَّذِينَ يُضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذابٌ شَديدٌ بِما نَسوا يَومَ الحِسابِ ﴾ [ص : ٢٦] .

﴿ وقال مُوسَى إنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الحِسابِ ﴾ [غافر : ٢٧] .

ومن أجلى الآيات الدالة بشكل قطعي على محاسبة الله عباده يوم القيامة قوله تعالى : ﴿ وَإنْ تُبْدُوا ما في أنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحاسِبْكُم بِهِ اللهُ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة : ٢٨٤] وقوله تعالى : ﴿ فَأَمَّا مَن أوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِساباً يَسِيراً وَيَنْقَلِبُ إلى أهْلِهِ مَسْرُوراً ، وأمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ فَسَوْفَ يَدعو ثُبُوراً ويَصْلَى سَعِيراً ﴾ [الانشقاق : ٧ ـ ١٢] . وهناك آيات كثيرة أخرى لاداعي إلى سردها إذ هي مما لاتكاد تخفى على أحد . ودلالتها على ثبوت الحساب يوم القيامة دلالة قطعية بإجماع المسلمين كلهم .

أما عن طول الحساب على الإنسان وقصره ، وصعوبته ويسره ، فهو يختلف باختلاف الناس وتفاوت درجاتهم . فمنهم من لايستغرق الحساب بالنسبة إليه أكثر من فواق ناقة ـ أي حلبها ـ كما قال النبي عليه الصلاة والسلام ، ومنهم من يتطاول عليهم أمد ذلك ويشتد عليهم الكرب ، ويتفاوت هؤلاء أيضاً في ذلك حسب أحوالهم التي كانوا قد أدبروا عنها في الدنيا .

واعلم أن الإيمان بالحساب يستلزم الإيمان بالكتب ، وهي صحائف بأسماء

أصحابها تعطى إلى يمين كل منهم أو يساره ، قد سجل فيها كل ما كان قد اجترحه أو اكتسبه ، والله أعلم بكيفية هذه الصحائف ونوعها وكيفية الكتابة المسجلة عليها . وكل ما أعلمنا الله إياه بإخباره القطعي هو أن من أوتي كتابه بيمينه كان من السعداء وكل من أوتي كتابه بشماله كان من أهل الشقوة والضلال .

وحسبك أن تنصت في بيان هذا الأمر إلى هذه الآيات الباهرة ، ثم تخضع لها وتوقن بمضمونها :

﴿ ولله مُلْكُ السَّمواتِ والأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَومَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ ، وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إلى كِتابِها اليَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعمَلُونَ . هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُم بالحَقِّ إنّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنتُمْ تَعمَلُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٧ ـ ٢٩] .

هول الموقف وعظائمه

واعلم أنه لن يجدي في تصوير حقيقة هذا الهول وبيانه ، أي وصف يُكتَب أو حديث يُتلى . وإنما هو شيء خبأه الله وأخفاه إلى حينه ، وحسبك أن تعلم أنه أهول من كل هول وأعظم من كل عظيم ، وأن تستحضر في تصور عظمة ذلك قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّها النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُم إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ، يَومَ تَرَوْنَها تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَها ، وَتَرى النَّاسَ سُكَارَى وَما هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذابَ اللهِ شَديدٌ ﴾ [الحج : ١ ـ ٢] . أو قوله تعالى : ﴿ فإذا جاءَتِ الصَّاخَّةُ يَومَ يَفِرُّ المَرءُ مِنْ أَخِيهِ ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ، لِكُلِّ امرئٍ مِنْهُم يَوْمَئِذٍ شأنٌ يُغنيه ﴾ [عبس : ٣٣ ـ ٣٧] .

وقد وصف رسول الله ﷺ طرفاً من هول الموقف فقال فيما رواه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : يحشر الناس يوم

القيامة حفاة عراة غرلاً[1] ، قلت : يارسول الله النساء والرجال جميعاً ينظر بعضهم إلى بعض ؟ قال ﷺ : يا عائشة الأمر أشد من أن ينظر بعضهم إلى بعض .

كما أوضح ﷺ أن الشمس تدنو إذ ذاك من رؤوس الخلائق ، حتى تكون منهم بمقدار ميل ، ويذهب العرق يسيح في الأرض سبعين باعاً ، فمنهم من يبلغ العرق كعبيه ومنهم من يكون إلى ركبتيه ومنهم من يكون إلى حقويه ومنهم من يلجمه العرق إلجاماً ، وأشار رسول الله ﷺ إلى فيه .

وحسبك من هول هذا اليوم أن يتمنى الناس الانصراف عنه ولو إلى النار ، وأن يطلق الله عليه اسم الفزع الأكبر .

إلا أن شيئاً من هذا الهول لا يمس ـ كما ورد بذلك الخبر الصادق ـ الأنبياء ، ومن قبلهم الله عز وجل عنده من عباده وأوليائه الصالحين . دلَّ على ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنها مُبعَدُونَ ، لا يَسْمَعُونَ حَسِيسَها وَهُم فِيما اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خالِدُونَ ، لايَحْزُنُهُم الفَزَعُ الأَكْبَرُ وتَتَلَقَّاهُمُ المَلائِكَةُ . هذا يَوْمُكُمُ الَّذي كُنْتُم تُوعَدُونَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٣ ـ ١٠٥] .

وقد دلَّ الحديث الصحيح أن من هؤلاء الذين لايحزنهم الفزع الأكبر ويكونون في مأمن من هذا العذاب الأليم ، أولئك الأصناف السبعة الذين أخبر الرسول ﷺ أنهم يظلهم الله في ظله يوم لا ظلَّ إلا ظلُّه .... الحديث .

فاجهد يا أيها الإنسان العاقل ـ وإنَّ فرصة العمر لا تزال في يدك ـ أن تكون واحداً من هؤلاء الذين قال عنهم : لا يحزنهم الفزع الأكبر . اجهد أن تكون واحداً منهم بسلوكك وخلقك ودينك وقيامك بحق ربك ، ولا يخدعنك عن ذلك طول الأمل وسلطان الشهوات والأهواء ، فيوشك والله أن ترى هذا

---

(١) أي غير مختونين .

الموقف بعينك وإذا البعيد قريب ، وإذا المشكوك متحقق وإذا الفرصة فائتة والندم لا يفيد .

ولا يجديك أن تسمع هذا الكلام وأنت منصرف عنه غير حافل به تحسبه وهماً من الأوهام ، فلو أن أحداً حدثك عن أعاجيب هذه الدنيا قبل أن تراها ، لكنت لها أشد إنكاراً ولكنت تحسبها أيضاً وهماً من الأوهام . ثم إنَّ مطية الليل والنهار سائرة بك من معبر هذه الدنيا التي دخلتها البارحة وستفارقها غداً ، إلى هذا الهول الذي لا تحفل به ، ولن تستطيع أن توقف حركة هذه المطية عن المسير ، فخير لك أن تحذر وتتأمل بفكر نقي خالص عن شوائب الأغراض والأهواء ، ولا يملك عقل عاقل أن يبصِّر صاحبه بأكثر من هذا الذي أقول .

الميزان والوزن

وكلاهما مما أخبر الله عنه في محكم كتابه ، بعبارات واضحة صريحة لا تحتمل التأويل . فهو حق يجب الإيمان به كما أخبر .

قال الله عز وجل : ﴿ والوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الحَقُّ ﴾ [الأعراف : ٨] وقال : ﴿ وَنَضَعُ المَوَازِينَ القِسطَ لِيومِ القِيامَةِ ﴾ [الأنبياء : ٤٧] وقال : ﴿ فَمَن ثَقُلَت مَوازِينُهُ فأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُم في جَهَنَّمَ خالِدُونَ ﴾ [المؤمنون : ١٠٢ ـ ١٠٣] .

وعلينا أن نمسك ، كما قال العلماء ، عن تعيين نوع هذا الميزان وجوهره وكيفيته ، وهل هو ميزان واحد للخلائق كلهم أم موازين كثيرة ، فكل ذلك مما لا سبيل إلى القطع به . ولكننا نؤمن بما أخبر الله عنه ، ونقول إنه كما أخبر جل جلاله ، دون أن نؤول أو نقحم عقولنا وأخيلتنا في حمل هذه الآيات على مجاز أو استعارة أو نحو ذلك .

أما كيفية وزن الأعمال ، وهي أمور اعتبارية ، فقد ورد ما دل على أنها تخلق بشكل أجسام لها ثقل وأبعاد . من ذلك قوله تعالى : ﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللهِ ، حَتَّى إذا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغتةً قالوا يا حَسرَتَنا على ما فَرَّطْنا فِيها وَهُم يَحْمِلُونَ أوزارَهُم على ظُهُورِهِم ، ألا ساءَ ما يَزِرونَ ﴾ [الأنعام : ٣١] ولكنا نكل كيفية الوزن وعلم ذلك تفصيلاً إلى الله عز وجل .

وبذلك نَسْلَم من حاجة الخوض في هذا البحث ، على نحو ما بحث المعتزلة ، ونسلم من الحاجة إلى التأويل والتحوير .

أمَّا : لماذا يكون الوزن وما الحاجة إليه والله أعلم بالأعمال وكميتها وأهميتها - فليس إلى شيء من ذلك حاجة إلهية كما لا يخفى ، ولكن لما جرت سنة الله في تنظيم هذه الحياة الدنيا وفي إدارة شؤون الإنسان على تحكيم نظام الأسباب والمسببات وتعويد العقل والخيال على ربط كل أثر بمؤثره وكل موجود بعلته - اقتضت الحكمة أن ينسحب هذا النظام نفسه على وقائع ما بعد النشأة الثانية والحياة الأخرى ، وأن يتلقى الإنسان الخبر عنها بعين تلك الطريقة التي ألِفها عقله وتشرَّبها خياله .

هذا شيء ، والشيء الثاني ، أن في تجسيد هذه الأمور الاعتبارية واستحضار الميزان والوزن لها ، بياناً للإنسان أن مضمون الحياة الثانية ليس إلا انعكاساً دقيقاً لمضمون الحياة الأولى ، تماماً كما يكون موسم الحصاد انعكاساً دقيقاً لموسم البذر والزرع . ولا يتضح هذا المعنى للإنسان اتضاحاً تاماً . لو قيل له إن الخالق جل جلاله يثيب كلاً أو يعاقبه حسب ما استقر في علمه جل جلاله من سابق كسبه وأعماله ، دون أن يطلعه على تلك الأعمال ويذكره بها ويضعها ماثلة بين عينيه ليقارن بينها وبين نتيجتها الماثلة أيضاً أمامه في ذلك اليوم . فلذلك اقتضت حكمة الله تعالى أن يقام للأعمال ميزان حسّي وأن تتجسد الأعمال بذاتها أو بواسطة صحائفها ، بل وأن تنطق الجوارح والأعضاء نفسها بما كانت قد اجترحته من

الآثام ، حتى تنطق هذه الأعمال نفسها بحقيقة العدل والجزاء وربط مقدمات الحياة الدنيا بنتائج يوم القيامة .

الصراط والاجتياز عليه

والصراط يطلق على معنيين : أحدهما في الدنيا ، وهو المنهج الذي شرعه الله لعباده وأمرهم باتباعه والتزامه ، وهو المعنيُّ بقوله تعالى : ﴿ وأنَّ هذا صِراطِي مُسْتَقِيماً فاتَّبِعُوهُ ﴾ [الأنعام : ١٥٣] وقوله تعالى : ﴿ اهْدِنا الصِّراطَ الْمُسْتَقِيم ﴾ [الفاتحة : ٦] .

ثانيهما في الآخرة ، وهو الجسر الذي ينصب على نار جهنم يوم القيامة ، فيجتاز عليه الناس على اختلاف مذاهبهم وأضرابهم وتفاوت درجاتهم ، فمنهم من يدق تحت قدميه حتى يبدو له أنه أدق من السيف ، فيترنح من فوقه ثم يهوي في النار ، ومنهم من ينبسط عريضاً تحت قدميه فيمر من فوقه إلى ما أعده الله له من النعيم المقيم .

وإليه يشير قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ مِنْكُمْ إلا وارِدُها كانَ على رَبِّكَ حَتْماً مَقْضِيّاً ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا ونَذَرُ الظّالِمِينَ فِيها جِثِيّاً ﴾ [مريم : ٧١ ـ ٧٢] وقوله تعالى : ﴿ وَلَوْ نَشاءُ لَطَمَسْنا عَلَى أعْيُنِهِمْ فاسْتَبَقُوا الصِّراطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ ﴾ [يس : ٦٦] . وروى البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن أناساً قالوا : يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال : هل تضارُّون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب ؟ ... إلى أن قال : ويضرب الله جسر جهنم فأكون أنا وأمتي أول من يجيز . ودعاء الرسل يومئذ اللهم سلم سلم . وبه كلاليب مثل شوك السعدان . أما رأيتم شوك السعدان[1] ؟ قالوا : بلى

(١) السعدان : نبت ذو شوك عظيم .

يارسول الله ، قال : فإنها مثل شوك السعدان غير أنها لا يعلم قدر عظمها إلا الله جل جلاله ، فتخطف الناس بأعمالهم منهم الموبق بعمله ومنهم المخردل ثم ينجو .

وروى البخاري ومسلم أيضاً عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « يمر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلاليب وخطاطيف تختطف الناس يميناً وشمالاً ، وعلى جنبيه ملائكة يقولون : اللهم سلم اللهم سلم ، فمن الناس من يمر مثل البرق ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالفرس المجري ومنهم من يسعى سعياً ومنهم من يمشي مشياً ومنهم من يحبو حبواً ، ومنهم من يزحف زحفاً ، فأما أهل النار الذين هم أهلها فلا يموتون ولا يحيون ، وأما أناس فيؤخذون بذنوب وخطايا فيحترقون فيكونون فحماً ثم يؤذن في الشفاعة » .

واعلم أن هذا الصراط إنما هو تجسيد لمعنى الصراط الذي ألزم الله به عباده في الدنيا ، فمن ضيَّق على نفسه سبل العيش والحياة حتى لا يخرج عن صراط الله ومنهجه الذي أمر باتباعه ، اتسع أمامه الصراط الممتد على متن جهنم ، ومن وسع على نفسه سبل العيش والحياة في الدنيا فتجاوز حدود الله وأحكامه ، ضاق عليه ذلك الصراط غداً . وإليك ما يقوله في بيان هذه الحقيقة الإمام الغزالي رضي الله عنه :

« فمن استقام على الصراط المستقيم ، خف على صراط الآخرة ونجا ، ومن عدل عن الاستقامة في الدنيا وأثقل ظهره بالأوزار وعصى ، تعثر في أول قدم من الصراط وتردى ، فتفكر الآن فيما يحل من الفزع بفؤادك إذا رأيت الصراط ودقته ، ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحته ، قرع سمعك شهيق النار وتغيظها ، وقد كلفت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك وتزلزل قدمك وثقل ظهرك بالأوزار المانعة لك عن المشي على بساط الأرض فضلاً عن حدة الصراط ! فانظر إلى حالك وأنت تزحف عليه وتصعد إليه وأنت مثقل الظهر بأوزارك تلتفت يميناً وشمالاً إلى الخلق وهم يتهافتون في النار

والرسول عليه الصلاة والسلام يقول : يارب سلم سلم ، والزعقات بالويل والثبور قد ارتفعت إليك من قعر جهنم لكثرة من زل عن الصراط من الخلائق ، فكيف بك لو زلّت قدمك ولم ينفعك ندمك فناديت بالويل والثبور وقلت : هذا ما كنت أخافه فياليتني قدَّمت لحياتي ، ياليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً ، ياويلتي ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً ، ياليتني كنت تراباً ، ياليتني كنت نسياً منسياً ، ياليت أمي لم تلدني ! فكيف ترى الآن عقلك وهذه الأخطار بين يديك ؟ فإن كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفار في دركات جهنم ، وإن كنت به مؤمناً وعنه غافلاً وبالاستعداد له متهاوناً فما أعظم خسرانك وطغيانك ، وما ينفعك إيمانك إذا لم يبعثك على السعي في طلب رضى الله تعالى بطاعته وترك معاصيه ؟ »[1] .

اللهم ارزقنا حسن الإنابة إلى دينك في حياتنا الدنيا ، وأحسن منقلبنا إليك في ذلك اليوم العظيم ، وأجرنا من عذابك بمحض منك وفضلك يارب العالمين .

الشفاعة والحوض

فأما الشفاعة فهي في الحقيقة مظهر من مظاهر رحمة الله عز وجل بمن شاء من عباده في ذلك الموقف . ويتجلى هذا المظهر بأشكال مختلفة ، فمنها أن يغفر الله لمن شاء من عباده العصاة ما لم يكن من أهل الكفر أو الشرك ، وفي إيضاح هذه الحقيقة يقول الله عز وجل : ﴿ إِنَّ اللّهَ لا يَغفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ ﴾ .

ومنها تكريم الله رسوله ﷺ بالشفاعة في أمته ، وهي ما يطلق عليه العلماء اسم الشفاعة العظمى .

---

(١) إحياء علوم الدين : ٤ / ٥٢٤ .

وهي تتمثل في شفاعات كثيرة ، أعظمها شفاعته ﷺ لأهل المحشر عامة لإراحتهم من طول الموقف وأهواله ، ومنها إدخاله طائفة من أمته الجنة من غير حساب ، ومنها شفاعته فيمن استحق دخول النار أن لا يدخلها ، ومنها شفاعته في إخراج المؤمنين والموحدين منها بعد دخولهم فيها . ويشاركه في هذه الشفاعة والتي قبلها ، على الأصح ، الأنبياء والملائكة والمقربون من المؤمنين .

والمقام المحمود الذي وعد الله رسوله به ، إنما هو المنزلة التي تخوله هذه الشفاعات المختلفة في أهل المحشر عامة وفي أمته خاصة . قال ابن جرير : قال أكثر أهل التأويل : ذلك هو المقام الذي يقومه محمد ﷺ يوم القيامة للشفاعة في الناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم[1] .

وعلى هذا فالمقام المحمود الذي سيقيم الله تعالى نبيه فيه يوم القيامة ليس اسماً لشفاعة معينة من الشفاعات المذكورة . وإنما هو اسم لجميعها حيث يغبطه الخلائق كلهم عليها . وإنما شفاعته ﷺ لأهل المحشر بإراحتهم من طول الموقف هو أول هذا المقام المحمود كما قال اللقاني في شرحه لجوهرة التوحيد[2] .

والآيات والأحاديث التي تتحدث عن الشفاعة كثيرة جداً ، فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ لاَ يَملِكُونَ الشَّفاعَةَ إلاّ مَن اتَّخَذَ عِندَ الرَّحمنِ عَهداً ﴾ [مريم : ٨٧] وقوله : ﴿ يَومَئِذٍ لا تَنفَعُ الشَّفاعَةُ إلاَّ مَن أَذِنَ لَهُ الرَّحمنُ وَرَضِيَ لَه قَولاً ﴾ [طه : ١٠٩] ومن ذلك الحديث الطويل الذي رواه الشيخان ، وفيه أن الناس ينصرفون إلى الأنبياء واحداً إثر آخر يرجون عندهم الشفاعة ثم ينصرفون إلى رسول الله ﷺ فيشفع في طائفة كبيرة من المؤمنين .

غير أن هذه الشفاعة ، إنما هي ، كما قلت لك ، مظهر من مظاهر رحمة الله

(١) انظر تفسير قوله تعالى : ﴿ عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقاماً محموداً ﴾ من سورة الإسراء في ابن جرير الطبري وابن كثير .

(٢) انظر عبد السلام اللقاني على الجوهرة ص ٢٤٢ .

بعباده الذين شاء لهم المغفرة ولكنها اتخذت هذا الشكل تكريماً لرسله وأنبيائه وبعض الصالحين من عباده .

وأما الحوض فهو مكرمة عظيمة خص الله بها محمداً ﷺ ، وقد نص عليه البيان القرآني في قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعطَينَاكَ الكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانْحَرْ إِنَّ شانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ ﴾ روى الإمام مسلم عن أنس رضي الله عنه قال : بينما رسول الله ﷺ بين أظهرنا في المسجد إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسماً ، قلنا : ما يضحكك يا رسول الله ؟ قال : لقد أُنزلت عليَّ آنفاً سورة ، فقرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، إِنَّا أعطينَاكَ الكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وانحَر ، إِنَّ شانِئَكَ هوَ الأبتَر . ثم قال أتدرون ما الكوثر ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . قال : فإنه نهر وعدنيه ربي عز وجل عليه خير كثير ، وهو حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة ، آنيته عدد النجوم في السماء فيختلج العبد منهم ، فأقول ربِّ إنه من أمتي ، فيقول : إنك لا تدري ما أحدث بعدك .

وروى مسلم في صحيحه ومالك في موطئه وغيرهما عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ خرج إلى المقبرة فقال : السلام عليكم دار قوم مؤمنين ، وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون ، وددت أني قد رأيت إخواننا ، فقلنا : يا رسول الله ألسنا بإخوانك ؟ قال : بل أنتم أصحابي ، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد وأنا فرطهم على الحوض ، فقالوا : يا رسول الله ، كيف تعرف من يأتي بعدك من أمتك ؟ قال : أرأيت لو كان لرجل خيل غرٌّ محجلة في خيل دُهم بهم ، ألا يعرف خيله ؟ قالوا : بلى يا رسول الله . قال : فإنهم يأتون يوم القيامة غراً محجلين من الوضوء ، وأنا فرَطهم على الحوض . فلا يُذَادَنَّ رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال ، أناديهم : ألا هلُمَّ ، ألا هلُمَّ ، فيقال : إنهم قد بدَّلوا بعدك . فأقول : فسحقاً ، فسحقاً ، فسحقاً .

ويتبين لك مما ذكرناه أن ماء الحوض والكوثر شيء واحد ، كما نص على

ذلك حديث مسلم السابق ذكره ، وأن أصله في الجنة . فما كان جارياً منه في داخلها فهو ماء الكوثر ، وما انصب منه في خارجها فهو ماء الحوض وهو الذي يرده المؤمنون الذين لم يبدلوا من دين الله شيئاً . قبل دخولهم الجنة ويكون رسول الله ﷺ فرطاً لهم عنده .

والأحاديث الواردة في شأن الحوض ووصفه كثيرة جداً ، وقد زادت عن حد التواتر .

وهو أيضاً من مظاهر إكرام الله تعالى لنبيه محمد ﷺ ورحمته بعباده .

الجنة والنار ، والخلود في كل منهما

وهما العاقبة التي لا بد أن تنتهي إلى إحداهما حياة الإنسان . وهي عاقبة أخيرة ودائمة لا عاقبة من بعدها .

ولا مجال لوصف أهوال النار وعذابها ، ولا لوصف نعيم الجنة وأسباب السعادة فيها ، فحديث ذلك يطول ، وهو على كل لا يكاد يصور شيئاً من الواقع الذي هو اليوم غيب عن الناس كلهم إلى أن يأتي ميقات ذلك اليوم المعلوم والمحدد في علم الله جل جلاله .

وإنما يتعلق الحديث هنا ببيان حقيقتين اثنتين لا بد أن يعيها المسلم ويعتقدهما اعتقاداً جازماً .

الحقيقة الأولى : الجنة والنار شيئان ماديّان

نعم إن الجنة والنار حقيقتان ماديتان من متعلقات كل من النفس والجسم معاً ، وليستا مجرد وهْمٍ يطوف بالنفس أو الروح وحدها .

إذ لو كان الأمر كذلك لما كان ثمة أي معنى للمعاد الجسمي الذي فرغنا من

بيانه والذي حفل كتاب الله تعالى بذكره وتأكيده والتحذير من عواقبه في كثير من نصوصه وآياته القاطعة . وبدهي أنه لا ينكر مادية كل من الجنة والنار إلا من أنكر قبل ذلك الحشر والمعاد الجسمي وعودة الأرواح إلى أجسادها .

ومن أوضح الأدلة وأجلاها على هذه الحقيقة ، الطريقة التي يصف بها القرآن كلاً من الجنة والنار ، وهي طريقة قد تثير استفساراً لدى بعض الناس عن حكمة اتباع القرآن لها والتزامه إياها . فالحكمة منها أنها تعبير عن أن نعيم الجنة حسي مادي يلقاه الجسد والروح معاً وعذاب جهنم حسي مادي أيضاً يلقاه الجسد والروح معاً ، وأنها تأكيد لهذه الحقيقة بأقوى الأساليب العربية المؤكدة .

تأمل هذه الآيات في وصف الجنة وأهلها : ﴿ وجوهٌ يَوْمَئِذٍ ناعِمَةٌ ، لِسَعيِها راضِيَةٌ ، في جَنَّةٍ عالِيَةٍ ، لا تَسْمَعُ فيها لاغِيَةً ، فيها عَيْنٌ جارِيةٌ ، فيها سُرُرٌ مَرْفوعَةٌ ، وأكوابٌ مَوضوعَةٌ ، وَنَمارِق مصفوفَةٌ ، وزَرابِيُّ مَبثوثَةٌ ﴾ [الغاشية : ٨ ـ ١٦] وهذه الآيات أيضاً : ﴿ وأصحابُ اليَمينِ ما أصحابُ اليَمين ، في سِدْرٍ مَخْضودٍ ، وَطَلحٍ مَنضودٍ ، وظِلٍّ مَمدودٍ ، وماءٍ مَسْكوبٍ ، وفاكِهَةٍ كَثيرَةٍ ، لا مَقْطوعَةٍ ولا مَمنوعَةٍ ، وفُرُشٍ مَرفوعَةٍ ﴾ [الواقعة : ٢٧ ـ ٣٤] .

فما الحكمة من وصف هذه الجزئيات كلها من الجنة ونعيمها ، ومعلوم أن أحدنا إذا أراد أن يصف مظهراً من مظاهر النعيم قد لا يجد نفسه بحاجة إلى أن يتناول في وصفه له هذه الدقائق الجزئية كلها ؟

الجواب ، أنه منتهى ما يمكن أن يتمثل به الأسلوب العربي في تأكيد أن نعيم الجنة شيء حسي ملموس يعيش فيه الإنسان بكل حواسه ومشاعره ، وليس معنى روحياً مجرداً كما يتخيل اليوم بعض من يريدون أن يقفوا في اعتقادهم أمام حدٍ وسط بين الإيمان والإلحاد . وهو في الحقيقة الإلحاد ذاته جاء ملوناً بهذا اللون السخيف .

ثم تأمل في هذه الآيات وهي تصف النار وأهلها : ﴿ وجوهٌ يَومَئِذٍ خاشِعَةٌ ، عامِلَةٌ نَاصِبَةٌ ، تَصْلى ناراً حامِيَةً ، تُسقى مِن عَينٍ آنِيَةٍ ، لَيسَ لَهُم طَعامٌ إلاَّ مِنْ ضَريعٍ ، لا يُسْمِنُ ولا يُغْني من جوعٍ ﴾ [الغاشية : ٢ ـ ٧] وفي هذه الآيات الأخرى : ﴿ ثُمَّ إنَّكُمْ أيُّها الضَّالُّونَ المُكَذِّبُونَ ، لآكِلُونَ مِنْ شَجَرٍ مِنْ زَقُّومٍ ، فَمالِئون مِنها البُطونَ ، فَشارِبونَ عَلَيهِ مِنَ الحَميمِ ، فَشارِبونَ شُربَ الهيمِ ، هذا نُزُلُهُم يَوْمَ الدِّين ﴾ [الواقعة : ٥١ ـ ٥٦] وفي قوله : ﴿ إنَّ المُجرِمينَ في ضَلالٍ وسُعُر ، يَوْمَ يُسْحَبونَ في النّارِ على وُجوهِهِمْ ذوقوا مَسَّ سَقَر ﴾ [القمر : ٤٧ ـ ٤٨] وفي قوله : ﴿ إنَّ الَّذينَ كَفَروا بآياتِنا سَوفَ نُصْليهِم ناراً ، كُلَّما نَضِجَتْ جُلودُهُم بَدَّلناهُم جُلوداً غَيرَها لِيَذوقوا العَذابَ إنَّ اللهَ كانَ عَزيزاً حَكيماً ﴾ [النساء : ٥٦] .

فما الحكمة من هذا الوصف التفصيلي بهذا الشكل ؟ .. إنه أيضاً بيان وإيضاح للناس كلهم أنه عذاب مادي محسوس ملموس تنغمس فيه حواس الكافرين وجسومهم ومشاعرهم ، وليس كرباً روحانياً مجرداً على نحو ما يتوهم ويتخيل الذين يحلو لهم ، في غرور عجيب ، أن يصعدوا على منبر من الغرور أقاموه من سنوات عمرهم القصير وتفكيرهم المحدود ، ليبعثوا منه بقرارهم عن قصة هذا الكون كله وعن حقيقة الحياة والموت وما بعدهما ، وحقيقة ما جاء من أمر الجنة والنار والحساب والعذاب . وكأنهم شركاء لله في تدبير كونه ، وليسوا خلقاً مهيناً من ملايين مخلوقاته عاشوا لمحة واحدة من عمر الدهر وكانوا قبل ذلك عدماً في طوايا الكون ، ثم استحالوا جيفاً في باطن الأرض في انتظار الأجل المحتوم واليوم الموعود ! ..

فهذه هي الحقيقة الأولى

الحقيقة الثانية : كل من الجنة والنار خالد لا نهاية له

إن نعيم الجنة باقٍ خالد لا نهاية له ، وعذاب جهنم باقٍ لا نهاية له . والآيات التي توضح هذه الحقيقة في كتاب الله تعالى كثيرة جداً .

فمن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصَّالِحاتِ كانَتْ لَهُم جَنَّاتُ الفِرْدَوْسِ نُزُلاً ، خالِدِينَ فيها لا يَبْغونَ عَنها حِوَلاً ﴾ [الكهف : ١٠٧ ـ ١٠٨] وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالدون ، لا يُفَتَّرُ عَنْهُم وَهُمْ فيه مُبْلِسونَ ﴾ [الزخرف : ٧٤ ـ ٧٥] وقوله تعالى : ﴿ وَنادَوا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَينا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُم ماكِثونَ ﴾ [الزخرف : ٧٧] .

وقد جاءت السنة بمزيد من التأكيد لهذه الحقيقة ، وذلك في أحاديث كثيرة ، منها ما رواه الشيخان عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا صار أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار ، جيء بالموت حتى يجعل بين الجنة والنار ، ثم يُذبح ، ثم ينادي مناد : يا أهل الجنة لا موت ، يا أهل النار لا موت ، فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم » .

وسواء أكان تجسيد الموت وذبحه بهذا الشكل حقيقة ، أم كان ذلك كناية عن القضاء على معنى الموت وإزالته من الوجود ـ فإن الحديث على كل حال ينطوي على أبلغ الأساليب المؤكدة لمعنى الخلود في كل من الجنة والنار . على أنّا لا نرى داعياً إلى إدخال أي تأويل على ظاهر الحديث .

غير أن الذين يستقرون خالدين في عذاب الله تعالى إنما هم الكافرون بمختلف فئاتهم وأضرابهم ، من مشركين وملاحدة وأهل كتاب ممن لم يؤمنوا بنبوة الأنبياء كلهم ، أما العصاة من المؤمنين بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر فمصيرهم ، مهما طال عليهم العذاب ، إلى مغفرة الله وجنته[1] .

(١) حاذر أن تطوف بذهنك تلك اللوثة التي يعاني منها بعض الجهال والمنافقين ، ممن يزعمون أن أهل =

وربما استشكلت بهذا الصدد قوله تعالى : ﴿ فأمّا الَّذينَ شَقُوا ففي النّارِ لَهُم فيها زَفيرٌ وشَهيقٌ ، خالِدينَ فيها ، ما دامَتِ السَّماواتُ والأرضُ إلاَّ ما شاءَ رَبُّكَ إنَّ رَبَّكَ فَعّالٌ لِمَا يُريدُ ، وأمَّا الذَّين سُعِدوا ففي الجَنَّةِ خالِدينَ فيها ما دامَتِ السَّمواتُ والأرضُ إلا ما شاءَ رَبُّكَ عَطاءً غَيْرَ مَجْذوذٍ ﴾ [هود : ١٠٦ ـ ١٠٨] ذلك أن ظاهر قوله : إلا ما شاء ربك ، استثناء من الخلود ، وهو ينافي ما تقرره الآيات الأخرى والأحاديث الثابتة وما اتفق عليه المسلمون .

والجواب أنه استثناء من قوله : شقوا ، في الآية الأولى ، ومن قوله : سعدوا في الآية الثانية . أي إن جميع الأشقياء خالدون في النار إلا من شاء الله منهم أن لا يخلدوا فيها ، وهم العصاة من أهل الإيمان والتوحيد ، كما دلت على ذلك الأدلة الكثيرة الأخرى . وجميع أهل السعادة خالدون في الجنة إلا من شاء الله منهم أن يتعذب في النار إلى أمدٍ قبل ذلك ، وهم أولئك الذين غمرت حياتهم بالمعاصي والأوزار من المؤمنين ولم تكتب لهم الشفاعة أولاً .

وإنما لم يأت الاستثناء بصيغة : إلا من شاء ربك . كما كان يقتضي ظاهر الاستثناء ، لأن المراد من المستثنى منه العدد المجرد لا الأشخاص بأعيانهم حتى يراعى فيهم العقل ، وذلك كقوله تعالى : ﴿ فانكِحوا ما طاب لَكُم مِنَ النِّساءِ مَثْنى وثُلاثَ وَرُباعَ ﴾ [النساء : ٣] . فقد عبر عن النساء بما ، عندما كان الملاحظ فيهن العدد لا الشخص .

فهذه هي جملة الحقائق الغيبية التي يجب أن يعيها الإنسان ويعتقدها اعتقاداً جازماً ، بعد أن اجتاز مرحلة الإيمان بالله ورسوله وكتبه . ولا يمكن عقلاً أن ينفك الإيمان بالله عن الإيمان بهذه المغيبات ، إذ هما متلازمان تلازماً واضحاً لكل ذي عقل .

= الكتاب مؤمنون ، وأنهم فئة أخرى غير الكفار ، فلا يعاقبون عقابهم ولا يخلدون في النار خلودهم . فإن هذا الزعم تحد صارخ لقول الله تعالى : ﴿ إنَّ الَّذينَ كَفَروا مِن أهلِ الكِتابِ والمُشْرِكين في نارِ جَهَنَّمَ خالِدينَ فيها أولئكَ هُم شَرُّ البَريَّةِ ﴾ [البينة : ٦] فقد قسمت الآية الكفار إلى أهل كتاب ومشركين ، ثم شملتهم جميعاً بهذا الوعيد العظيم .